الثورة العرابية والثورة المهدية
علاقة أم لا علاقة!؟

د. يونان لبيب رزق

أستاذ التاريخ الحديث

بكلية البنات - جامعة عين شمس

-H.W. Fowler & F.G. Fowler, The Concise Oxford

Dictionary, 4 th. Ed. 1958

- Langer, W.L., An Encyclopaedia of [illegible]

الثورة العرابية والثورة المهدية
علاقة أم لا علاقة!؟

كان من المنطقى أن يتوفر شكل وثيق من أشكال العلاقة بين كل من الثورة العرابية فى مصر، شمال الوادى، والثورة المهدية فى السودان جنوبه.

ففضلا عن العلاقة التقليدية القائمة بين شطري النيل منذ العصور القديمة والتي تحولت إلى تلاحم سياسي بعد خضوع البلدين لحكم واحد منذ عام ١٨٢٠، وتكوين هيئة نيابية واحدة فى مطلع الثمانينات[١]، تتأسس هذه المنطقية على أكثر من اعتبار:

١. هناك عنصر التزامن، ففي نفس عام تفجر الثورة العرابية -١٨٨١- يعلن محمد أحمد عن مهديته (١٥ مايو)، وبينما يشتعل أوار الثورة فى مصر كان ثوار الجنوب يتقدمون بخطى حثيثة فى طريق تحدي السلطة، ففي نفس شهر وقفة عابدين فى الشمال (سبتمبر) يتأكد فشل محمد باشا سعيد حكمدار عموم السودان فى القبض على المهدى ووقف حركته (٢٧ سبتمبر)، ويستمر إطراد عملية التحدي حتى تصل إلى منتهاها خلال العام التالي.

٢. وهناك عنصر الأعداء المشتركين مما يوفر للثورتين وحدة الهدف ..

كان التدخل الأوربى العدو رقم (١) الذي قامت الثورتان لمواجهته، صحيح أن هذا التدخل اتخذ فى كل من مصر والسودان أشكالا مختلفة غير أن الملامح الأساسية كانت واحدة..

فقد اتخذ هذا التدخل فى أسوأ أشكاله فى مصر التغلغل الأوربي فى الإدارة حتى انتهى الأمر لما انتهى إليه فى عام ١٨٧٨ من تشكيل وزارة مصرية يتولى وزيران أوربيان (إنجليزى وفرنسى) أهم الوزارات فيها.[٢]

وارتكب هذا التدخل فى أسوأ أشكاله فى السودان نفس الفعلة حين نجح الأوربيون فى الاستئثار بعدد من أهم مناصب حكام الأقاليم فى نفس العقد «السبعينات من القرن التاسع عشر». وكان منهم ألمان [٣]، ونمسويون[٤]، وإيطاليون[٥]، ناهيك عن الإنجليز الذين وصل أحدهم، وهو غوردون باشا، إلى منصب حاكم عام السودان.

كان الحاكم المصري من أسرة محمد علي، الخديوي توفيق، العدو المشترك رقم(٢) سواء بالنسبة للثوار المصريين أو بالنسبة للثوار السودانيين، وتتعدد مواقف قيادة الثورة العرابية العدائية من توفيق، وإن كانت قد وصلت إلى ذروتها بعد الاحتلال البريطاني للإسكندرية واحتماء الخديوي بالمحتل الأجنبي مما يبدو فى المنشور الذي حرره عرابي وبعث به إلى «شتى جهات مصر والسودان»، وكان مما جاء فيه:

«.. فالخديوي بدلا أن يرجع إلى مصر (يقصد القاهرة) ليكون خلف الجيش يتمم التجهيزات الحربية ويساعد على تقوية الجند وتعضيدهم قد التجأ إلى العدو وأخذ نساءه وأتباعه ونزل بهم فى مراكبه وجعل الإنجليز حكاما فى الثغر وأهان من فيه مسلمين وأقباطا ولم يراقب الله فى أمة ما جنت عليه ولا على أحد ذنبا».[٦]

نفس المشاعر والآراء أبداها زعماء الثورة المهدية فى الخديوي توفيق فيما نلاحظه خاصة من الرسائل التي بعث بها الخليفة عبد الله التعايشي إلى الحاكم المصري ينذره فيها بالويل والثبور لما درج عليه من الاستعانة بالكفار النصارى عن إخوانه فى الدين مذكرا إياه بالآية الكريمة ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.[٧]

كان «الترك» هم العدو رقم (٣) للثورتين، وإن اختلفت رؤية زعماء كل منهما لهذا العدو فى جانب واتفقت فى جانب آخر..

الجانب الذى اختلف فيه الطرفان تمثل فى تباين نظرتهما إلى سلطان استنبول، فقد ظل عرابى ورفاقه ينظرون إلى الحاكم التركى على اعتباره خليفة المسلمين حتى

آخر وقت، بينما اتهمه الخليفة عبد الله فى رسالة كتبها إليه بالإعراض «عن إجابة داعي الله إلى هذا الآن ومقرا لرعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان».(٨)

أما الجانب الذى اتفق فيه كل من زعماء الثورتين تمثل فى كراهيتهم للعنصر التركي بعد أن عانت منه شعوبهم الكثير خلال المرحلة التاريخية السابقة، فزعامة الثورة العرابية كرهت فى الأتراك مزاحمتهم للمصريين واستئثارهم بالمناصب الكبرى دونهم، حتى أن المطلب الأساسى لتحرك العسكريين المصريين كان فى بداية الأمر هو إقالة عثمان باشا رفقي الچركسى من نظارة الحربية لتفضيله لأبناء جلدته عن «أولاد البلد». كما كرهت زعامة الثورة المهدية العنصر التركي فى الحكم حتى أنهم رأوا فى كل المظالم التي دفعت بهم إلى الثورة «مظالم تركية»، ولم يذكروا بالسوء إخوانهم المصريين الذين وصفوهم بأنهم «أهالى الجهات البحرية»!

٣. ويبقى عنصر «الهوية الإسلامية» التي ميزت الثورتين، والطابع الدينى للثورة المهدية من الأمور التي لا خلاف عليها، فزعيم الثورة رجل دين، والدعوة قامت أساسا على تحرير «بلاد الإسلام» من الغزوة الأوربية، أو على حد تعبير زعماء الثورة من «النصارى الكفار».

نفس الطابع حملته الثورة العرابية، وليس أدل على ذلك من قولة مفكرها السيد عبد الله النديم «إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر».(٩)، وقد عبر بهذا عن روح التضامن الإسلامى فى مواجهة التهديد الأوربى، على اعتبار أن قبرص كانت وقتذاك مربضا من مرابض الاستعمار البريطانى.

* * *

بالرغم من ذلك لا يكاد الباحث يجد ما يمكن تسميته بالعلاقات العرابية-المهدية.

فالكتاب الذين تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع أخذت الحيرة بتلابيبهم، حتى أن أحدهم وضع عنوانا بهذا المعنى فى كتاب له [١٠]، ومن بين عديد من الصفحات جاءت تحت هذا العنوان لم يأت إلا بفقرة واحدة عن تلك العلاقات واعتذر بأن مراجعه الأوربية لم تسعفه فى العثور على المزيد. وهذا باحث آخر وضع كتابا جاء فى عنوانه أنه «دراسة مقارنة فى الأصول التاريخية للثورتين العرابية والمهدية واتجاهات الفكر الثوري فى عهدهما» [١١]، غير أنه مع تقليب صفحات هذا الكتاب نجد أن الدراسة قد انصبت بالأساس على كل ثورة من الثورتين على حدة، حتى أن بابا بأكمله لم يتعرض سوى للثورة العرابية [١٢]، وآخر لم يتعرض سوى للثورة المهدية [١٣] بينما جاء الباب الأخير تحقيقا لكتاب «نصيحة العوام».

الأهم من ذلك وثائق الثورتين التي تم تجميعها وترتيبها خلال السنوات الأخيرة، سواء تلك الموجودة فى دار الوثائق المركزية بالخرطوم والمتعلقة بالوثائق المهدية، أو فى دار الوثائق القومية فى القاهرة والخاصة بالثورة العرابية.

بالنسبة لوثائق الخرطوم فهناك منشورات المهدى [١٤] وبعض مراسلاته، كذا مراسلات الخليفة عبد الله التعايشي، ولا نكاد نجد فى أى منها ذكرا للثورة العرابية أو رسالة موجهة لواحد من زعمائها.. المرة الوحيدة التي وردت فيها إشارة عن العرابيين جاءت فى رسالة الخليفة عبد الله إلى الملكة فيكتوريا، ملكة بريطانيا، حين كتب يقول:

«وإن كنت تظنين توهما أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمدباشا عرابي الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخذلوا عن نصرته ومكنوك من الاستحصال على البر المصرى وصاروا أذلة أسرى لا يستطيعون المدافعة عن أنفسهم فهذا توهم فاسد وغرور كاسد فإن رجال المهدية رجال إلهيون طبعهم الله على حب الموت وجعله أشهى لهم من الماء البارد للظمآن». [١٥]

نفس الظاهرة فرضت نفسها على وثائق القاهرة، حيث انصبت محافظ الثورة العرابية الأربعين على محاكمات رجال الثورة وعلى تقارير عن حادثة ضرب الإسكندرية، وكذا اجتماعات العرابيين.

وتتطلب هذه الظاهرة التي لا تتسق مع منطق الأحداث محاولة للتفسير، وبالإمكان أن نقدم أكثر من سبب لوجودها ..

* أول هذه الأسباب: متصل بعنصر التواكب الزمني، فبالرغم من توافر هذا العنصر كما سبقت الإشارة إلا أننا نلاحظ أنه بينما كانت الثورة فى الشمال تواجه مرحلة السقوط من عمرها القصير، كانت الثورة فى الجنوب تستقبل مرحلة الصعود من عمرها الطويل نسبيا، وقد انشغلت الأولى عن شقيقتها فى الجنوب بالمخاطر التي أخذت تواجهها، وتشاغلت الثانية عما يجرى فى مصر فهي لم تكن ترغب قطعا أن يضاف رصيد الفشل للثورة العرابية إلى حسابها، ولعل ما جاء فى خطاب التعايشي إلى الملكة فيكتوريا، مما سبقت الإشارة إليه، يعبر عن تلك الحقيقة أصدق تعبير.

* السبب الثانى: يتصل بالتعقيدات الداخلية والخارجية التي واجهها الثوار العرابيون، وهو ما لم يواجهه ثوار الجنوب، مما دعا قيادة الثورة الأولى أن تتخذ من المواقف ما كان لا يمكن أن ترضى... مثل على ذلك أنه لم يكن بإمكان عرابي وزملائه مناصبة الدولة العلية العداء، فى نفس الوقت الذى يعملون خلاله على مواجهة النفوذ الأوربي الذى كان قد استفحل أمره فى البلاد، وهو موقف لم يكن ليُرضي بالقطع زعامة الثورة المهدية التى وضعت سلطان استنبول فى نفس الصف مع أعداء الثورة من الأوربيين.

مثل آخر أنه كان بإمكان الثورة المهدية أن تخلع ولاءها للخديوى -المقيم بالقاهرة- منذ الأيام الأولى لقيامها، وهو الأمر الذى لم يستطع العرابيون الإقدام عليه إلا بعد ضرب الإسكندرية، وبعد أن تأكد لجموع المصريين انحياز توفيق للغزاة الأجانب.

*السبب الثالث: يتعلق بطبيعة تركيب المجتمعين المصرى والسوداني مما كان يصعب معه أن تستخدم كل ثورة الوسائط التى استخدمتها الثورة الأخرى، وبالتالي فإن كلا منهما كان يتحدث لغة مختلفة.

فى السودان حيث المجتمع القبلي، وحيث الإسلام باعتباره الدين السماوى الوحيد،وحيث ضعف التأثيرات الغربية مما أدى إلى ندرة وجود جماعات مؤثرة مثل جماعات المثقفين ثقافة عصرية أو مثل جماعات كبار الملاك .. فى مثل هذه الظروف كانت الثورة فى الجنوب ثورة دينية بالأساس، هذا من جانب، ثم إنها فى سعيها لفرض سلطتها قد قامت إما بجذب القبائل التى قبلت بها أو محاربة القبائل الأخرى التى أبت الاستجابة لها، من جانب آخر، الأهم من ذلك فى مجال العلاقة بين الثورتين أن العدو الرئيسي الذى حاربه الأنصار كانت الدولة والقوة العسكرية التى تمثلها مجسدة فى الجيش المصري.

اختلف الأمر فى مصر: فمن ناحية كانت القوة التى حاربها المهديون فى الجنوب هي التى قادت الثورة فى الشمال، تمثلت تلك القوة فى شريحة المثقفين العسكريين من ضباط الجيش المصرى التى قادت العمل الثورى والتى كان عرابي باشا على رأسها. من ناحية ثانية لم تكن الثورة المصرية تستطيع أن تأخذ هذا الطابع الديني القح الذى اتخذته الثورة المهدية، سواء بسبب وجود أقلية مسيحية كبيرة من المصريين أنفسهم مما يمكن أن يترتب عليه لو سارت على نفس النهج أضرار كبيرة بالوحدة الوطنية، أو بسبب وجود جاليات أجنبية قوية كانت حكوماتها ستبادر إلى الصدام مع الثورة إذا تعرضت لأى اضطهاد ديني. من ناحية ثالثة وأخيرة اختلفت الوسائط التى ارتأها زعماء كل ثورة لتحقيق أهدافها .. ففي مصر التى اتصلت طوال القرن التاسع عشر بالفكر السياسى الأوربى سعى الثوار إلى إنشاء مجلس نيابي على اعتبار أن الحياة الدستورية هي الطريق إلى حكم الأمة، وهذا الشكل من الفكر لم تكن له جذور أو فروع فى التربة السودانية، بالعكس فقد أقامت الثورة المهدية دولة من أشد الدول أوتوقراطية فى ذلك العصر.

* * *

لا يعني ذلك أن كل قنوات الاتصال قد تقطعت بين الثورة العرابية والثورة المهدية، فقد تعددت هذه القنوات التى يمكن تصنيفها تبعا لاتساعها، فنبدأ بأكثرها ضيقا لنصل إلى أكثرها اتساعا..

العلاقة بين الثورتين قبل الاحتلال البريطاني لمصر:

مثلت العلاقات فى تلك المرحلة أضيق القنوات اتصالا بين الثورتين، وبعد استعراض بعض الجوانب القليلة التى تم العثور عليها من تلك العلاقة نحاول تفسير أسباب ذلك الضيق ..

جانب منها تمثل فيما ذكره بعض المعاصرين الأجانب ونقله الباحثون المصريون عنهم وجاء فيه أن زعيم الثورة المصرية «أحمد عرابي» كان ينوى لو استقرت له الأمور فى مصر أن يعين المهدى حاكما عاما على السودان. (١٦)

تمثل الجانب الثانى فى محاولة الزعامة العرابية استمالة أهالي السودان بمن فيهم الثوار المهديين بالطبع بعد ضرب الإسكندرية، وبعد أن أحدقت بهم قوات الاحتلال البريطانى المتحالفة مع الخديوى توفيق.

وتحفظ لنا الوثائق المصرية بعضا من هذه المحاولة، فقد تضمنت مذكرات مصطفى ياور حاكم دنقله إبان الثورة المهدية خطابا بعث به إليه وكيل «نظارة وحكمدارية السودان» مرفقا به منشور عرابي الذى يدين فيه الخديوي.

كان مما جاء فى المنشور اتهام توفيق بأنه «ما يريد بذلك إلا تسليم البلاد إلى الإنكليز من غير حرب»، وبوجوب «القتال علينا دفاعا عن البلاد والدين والأعراض»، ثم ينتهي بتنبيه كل فرد من أفراد الأمة ليكون على بينة «من دسائس الخديوى وخدامه». (١٧)

ما جاء فى الخطاب كان الأهم، فقد طالب وكيل نظارة وحكمدارية السودان، بتعليمات من ناظر الجهادية والبحرية -أحمد عرابى- شتى حكام المديريات فى

السودان «بإعلانها لمن يلزم، وحيث فى تاريخه صار النشر لكافة جهات السودان عن ذلك فهذا بالجملة لحضرتكم لمعلوميته وإعلانه للجهات التابعة لذاك الطرف لاتباع الإجراء بمقتضاه». (١٨)

ويمكن رصد أكثر من ملاحظة وراء هاتين المحاولتين:

١- أن عملية الاتصال قد تمت بمبادرة من الجانب المصري، وليس هناك ما يفيد بأى رد فعل من الجانب السوداني، فواضح أن عرض منصب الحاكم العام للسودان على المهدى لم يتحول من مرحلة النوايا من جانب الزعيم المصرى إلى عمل محدد، ذلك أن الأحداث لم تمهل عرابي لوضع تلك النوايا موضع التنفيذ.

وكان رد الفعل بالنسبة للمحاولة الثانية سلبيا أيضا، وإن كان لا يمكن إلقاء التبعة فى ذلك على عرابي هذه المرة، فقد كان خطأ القناة التى اختارها لتوصيل منشوره الثورى إلى «أهالي السودان»، وبالتالي زعامة الثورة المهدية.. ذلك أنه أسند هذه العملية إلى مديرى المديريات السودانية، وقد كان هؤلاء غير مؤهلين للقيام بهذه المهمة سواء بحكم عداء الأنصار لهم مما كان لا يسمح لهم بتلقي مثل هذا المنشور منهم، أو لأن أغلب هؤلاء انتموا للطبقة التركية الحاكمة التى كان الخديوى على رأسها، ولم يكن من المعقول مع مثل هذا الوضع أن يعمدوا إلى ترويج مثل هذه المنشورات التى تسعى إلى توحيد ثوار الجانبين ضد هذه الطبقة أو رأسها.

٢- لم يتفهم الذين قاموا بهذه العملية طبيعة الثورة المهدية بقدر كاف، فهم فى المحاولة الأولى تحركوا من موقعين، وكان كلاهما الموقع الخطأ..

(الموقع الأول) هو موقع الحكام الراغبين فى إرضاء جانب من الشعوب الخاضعة لهم بتنصيب أحد أبنائها حاكما عليها، وهم بهذا لم يكونوا شركاء ثورة بقدر ما كانوا ممثلي سلطة.

(الموقع الثاني) اعتبار ثوار السودان طلاب حكم، ولم يكونوا كذلك، فقد كان محمد أحمد داعية من الدعاة الدينيين شديدى المراس، وكان يسعى إلى التغيير لا الحصول على منصب، وهو بالتالي لم يكن رجل سياسة بقدر ما كان زعيم ثورة.

وهم فى المحاولة الثانية، وإن كانت محاولة صحيحة من ناحية دعوة السودانيين للاشتراك فى ثورتهم غير أنه أعوزها أيضا نفس الفهم الصحيح، ذلك أن المنطلقات التى تحرك منها المنشور العرابي للثوار السودانيين لم تتفق فى كل نواحيها مع منطلقات ثورتهم، وبالتالي لم يكن متوقعا أن يشاركوا فيها، على افتراض أن الدعوة قد وصلتهم بالفعل.

مثل على ذلك الحرص الذى أبداه عرابي فى منشوره على أن الدولة العثمانية هي مصدر المشروعية، حين ذكر بأن الخديوى «احتمى بالإنكليز بدلا من أن يرجع لدولتنا العلية التى قلدته هذه الإمارة الجليلة» (١٩) مثل هذا الحرص لم يكن ليرضي زعماء المهدية الذين رفضوا أساسا أن يدينوا بالطاعة للسلطان التركي، ويحفل الخطاب الذى أرسله الخليفة عبد الله إلى السلطان عبد الحميد بعبارات الرفض، فيقول فى جانب منه: «(تدعي) أنك سلطان الإسلام القائم بتأييد سنة خير الأنام»، ويقول فى جانب آخر «(تزعم) أنك ولي المسلمين الذاب عن حرم الدين ..الخ..» (٢٠) مما يؤكد اختلاف المنطلق فى هذه النقطة على الأقل.

والحقيقة أن الظروف لم تكن لتساعد على استكمال مثل هذه المحاولة، فمن ناحية لا يمكن الإدعاء أن زعماء الثورة العرابية تمكنوا من التعرف على المعالم الأساسية لفكر الثورة المهدية حتى يمكنهم فى نهاية الأمر اتخاذ موقف منه بالرفض أو بالموافقة، أو حتى بمحاولة التوفيق، ومن ناحية أخرى فإن الأحداث لم تمهلهم للمحاولة، فقد انشغلوا بعد الاحتلال البريطاني للإسكندرية بمحاولة دفعه عن البلاد، وهو ما فشلوا فيه.

بيد أنه بالرغم من هذا الفشل لم تنقطع محاولة عقد اتصال بين الثورتين، وإن كانت تلك المحاولات قد تمت على مستويين..الأول:علاقة بين زعماء العرابيين فى المنفى وثورة السودان، والثانى: علاقة بين مفكرى العرابيين الذين تم نفيهم إلى السودان وبين فكر المهدية.

عرابيو المنفى والثورة المهدية:

بعد دخول الإنجليز القاهرة وإجراء المحاكمات لقادة الثورة العرابية انفرط عقد هؤلاء القادة وخرج جانب هام منهم إلى المنفى وإن كانت قد اختلفت مناطق النفي من مجموعة إلى أخرى..

المجموعة الأولى والأهم، فيما يتصل بالعلاقات العرابية-المهدية، هي المجموعة التى تم نفيها إلى السودان مما يدعونا إلى أن نفرد لها القسم الأخير من هذه الدراسة.

المجموعة الثانية: تتمثل فى زعماء الثورة العسكريين الذين قامت سلطات الاحتلال بنفيهم خارج البلاد، وبالذات الزعيم أحمد عرابي الذى نفي إلى سيلان.

أما المجموعة الثالثة فتتكون من أولئك الذى اختاروا النفي بإرادتهم، والتى يمثلها أصدق تمثيل الشيخ محمد عبده فى منفاه فى باريس، حيث التقى مع جمال الدين الأفغاني ليصدرا مجلة «العروة الوثقى» من العاصمة الفرنسية.

* * *

فيما يتصل بمجموعة سيلان يروى لنا المستر ولفرد سكاون بلنت Blunt وصاحب العلاقات الوثيقة مع أحمد عرابى قصة عن محاولة من الأخير للاتصال بالمهدى فى مجموعة مراسلات تمت بينه وبين الزعيم المصرى، ثم بين هذا الأخير وبين اللادى آن بلنت.

تبدأ المحاولة بالرسالة التى بعث بها بلنت إلى عرابي فى ٢٦ إبريل عام ١٨٨٤ يتحدث فيها عن متاعب بريطانيا فى مصر، وعن استفحال الثورة فى السودان، وعن نيتها فى الانسحاب فى أقرب وقت، ويعرج من هذا إلى الإشارة إلى أن المسئولين قد اقترحوا عليه الذهاب فى بعثة إلى المهدى ليعقد معه اتفاقية سلام، وإنقاذ حياة غوردن الواقع تحت حصار الأنصار فى الخرطوم، ويسأله رأيه فى إمكانية تنفيذ الاقتراح المطروح. (٢١)

ويصل رد عرابى فى ٢ يونيو من نفس العام، وقد جاء فيه ..

«إذا ما اعتزمتم الذهاب إلى المهدى فإني أتوسل إليكم بكل ما أملك أن تحملوا معكم بعض الرسائل الممهورة بختمي حتى يمكنكم أن تستخدموها كبرهان على أنكم الصديق الوفى للعالم الإسلامي، وأنكم سعيتم لإنقاذ حياتنا». (٢٢)

ويتضح من رسالة الزعيم المصرى أمران؛ أولهما: إيمان عرابي بفكرة تلاحم الثورتين حتى أنه تصور أن سبيل الأمان الأساسي لصديقه بلنت سوف يتوفر إذا ما حمل هذا الأخير خطابات تحمل خاتمه. ثانيهما: ما سعى إلى إبرازه باعتبار أن ما قدمه بلنت له وللثورة التى قادها إنما هو خدمة للإسلام، ولا شك أن الزعيم المصرى كان مصيبا فى هذا التصور، وكان بالفعل يمكن لو قدر لبلنت أن يقوم بمهمته أن يكون لمثل هذه الشهادة قيمتها عند المهديين.

غير أن أهم المراسلات كانت تلك التى بعث بها عرابي باشا إلى اللادى آن بلنت والمؤرخة فى ٢ مارس عام ١٨٨٥ أى بعد سقوط الخرطوم، وقد جاءت هذه الرسالة تعليقا على سلسلة من المقالات كتبها المستر بلنت فى التايمز قال فيها أنه يخشى من أفول نجم إنجلترا نتيجة لسوء أعمالها فى كل من مصر والسودان، وقال عرابي فى رسالته..

«ماذا كسبت إنجلترا بغزوها لمصر؟ وماذا فى السودان؟ دعونا نتحدث عن خسارتها لأن الله يعلم أنها لم تربح شيئا. لقد خسرت اسمها الطيب وخسرت صداقة

كل المسلمين وصداقة مولانا السلطان . خسرت أيضا غوردن باشا الذى امتثل لنصائح السوء، كما خسرت هيكس وإيرل وعديدا من الضباط الآخرين. أضف إلى ذلك أنها خسرت الاحترام نتيجة لهذه الحرب التى تشنها «على الرجال الأحرار فى السودان».

«متى ستتوقف إنجلترا عن المضي فى هذا الطريق؟ .. متى ستتوقف عن إرسال أسلحة الدمار ضد رجال ينتقمون لإخوانهم المصريين، ضد رجال يدافعون عن بلادهم وعلى استعداد لشرب كأس المنون ولا يرون أعداءهم يعيشون داخل بلادهم».

«دعنى أخبرك أن ١٥ مليونا من هؤلاء يسيطرون الآن على بلاد السودان ودارفور، وجميعهم من أتباع المهدي، وقد عاهدوه على الموت دفاعا عن القرآن المجيد. ويزداد المهدى قوة كلما زاد العدوان الإنجليزي، وهذا شأن الله فى خلقه، خاصة مع أولئك الذين يرون ويفكرون ويفهمون». (٢٣)

وتبدو أهمية هذه الرسالة فى أنها تمثل أول رأى صريح وواضح من جانب زعيم الثورة العرابية فى علاقة ثورته بالثورة المهدية، حتى أنه رأى أن صدام الأنصار مع الإنجليز هو بمثابة الانتقام لما أصاب الثورة المصرية على أيدى الأخيرين، ثم أنها تضمنت فى نفس الوقت رأيا صريحا وواضحا فى رجال الثورة السودانية الأحرار المستعدين للدفاع عن بلادهم وعن الإسلام حتى الموت.

غير أنه ينبغي قبل التوقف عن قراءة هذه المراسلات التنبيه إلى حقيقتين؛ أولاهما: أن قيمتها تقتصر على التعرف على رأى زعيم الثورة المصرية فى الثورة السودانية، ذلك أن تطور الأحداث لم يمهل المستر بلنت للقيام برحلة الوساطة وتسليم رسائل عرابي للمهدي. وثانيتهما: أن هذا الرأى قد صدر وعرابي فى المنفى، ولا نعلم ماذا كان رأيه لو كان لازال فى موضع المسئولية كما كان الحال قبل هزيمة التل الكبير!؟.

* * *

فيما يتعلق بمجموعة باريس بالإمكان التعرف على موقفها من خلال تقليب صفحات مجلة العروة الوثقى.

جاء فى العدد الأول من المجلة الإسلامية الشهيرة الصادر فى ١٣ مارس عام ١٨٨٤، وتحت عنوان «سياسة إنكلترا فى الشرق» وصفا للمهدي، كان من بين ما تضمنه:

«يقرب إلى الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب فى فيافى طرابلس (تقصد السنوسيين) أو قاربت، وأن هذه النيران التى يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء وعند ذلك يمسى باب الهند بين ألسنة النيران من ثلاث جهات». (٢٤)

وجاء فى افتتاحية العدد الرابع وتحت عنوان «انتصار السودانيين على الجيوش الإنكليزية» ما نصه:

«الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلا لقلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا فى لاهور: أن محمد أحمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهديا»!. (٢٥)

وتضمن العدد العاشر ما نصه: «جاء الخبر أن أهالي جرجا فى هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد إلى تلك المدينة رجل من أتباع محمد أحمد قادما من القاهرة ودعا الأهالي إلى الأخذ بطريقته، فإذا بينهم جمع غفير يجيب داعيه وهو ما يدل على أن القائم السوداني مهتم بنشر دعوته محتاط لنفسه حاذق فى عمله وله دعاة فى أرجاء الديار المصرية حتى عاصمتها» (٢٦).

يتضح من هذه المقتطفات اتفاق نظرة المجموعة العرابية فى باريس مع نظرة مجموعة سيلان للثورة المهدية، وإن كانت مجموعة الشيخ محمد عبده قد استمتعت

بقدر من الحرية فى التعبير عن موقفها ونشره فى العالم الإسلامي، وهو ما لم يكن متاحا لمجموعة سيلان.

ولاشك أن هذا النشر قد أزعج السلطات البريطانية حتى أننا عثرنا على خطاب أرسله المستر بلنت إلى الشيخ محمد عبده يرجوه فيه عدم المبالغة فى أخبار المهدى لما يمكن أن يكون لمثل هذه المبالغة من آثار وخيمة. (٢٧)

غير أن المسألة لم تقتصر على حرية النشر من مجموعة باريس بل كان هناك ما هو أهم فيما يرويه لنا الشيخ رشيد رضا الذى يشير إلى خطة أعدها كل من الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده للذهاب خفية إلى السودان وتنظيم قوة محمد أحمد «توسلا إلى إنقاذ مصر بها وتأسيس دولة قوية يعتز بها الإسلام والشرق». (٢٨)

ويؤكد تلميذ الإمام محمد عبده أنه لما ترك أوروبا ودخل مصر متخفيا كان من أهم أهدافه التمهيد فيها للذهاب إلى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين إذا نجح فى سعيه هذا. (٢٩)

والواضح أن الشيخ محمد عبده لم ينجح فى مسعاه إذ المعروف أنه قد ذهب إلى سوريا وبقي فيها حتى صدر العفو عنه، وعاد إلى مصر ليقوم بعمله الإصلاحي الذى اشتهر به بعيدا عن ماضيه الثورى!.

العرابيون فى السودان والثورة المهدية:

بعد المحاكمات التى جرت للثوار المصريين فى أعقاب الاحتلال البريطاني للبلاد تقرر نفي مجموعة منهم إلى السودان، وكان من الأمور الطبيعية فى ذلك العصر نفي المذنبين من رجال الحكومة إلى المدن السودانية، ناهيك عن رجال ثورة قامت ضد الخديوي.

وقد اختلفت الظروف بالنسبة لهذه المجموعة عن غيرهم ممن كانوا ينفون إلى السودان فى مناسبات سابقة، كذا عن زملائهم من رجال الثورة المصرية الذين تم

نفيهم إلى بلاد أخرى .. فهم قد اختلفوا عن زملائهم فى أنهم ذهبوا إلى أرض تموج بأسباب الثورة، ومن هنا توفرت المناسبة الوحيدة لالتقاء الثورتين.

تم هذا الالتقاء من خلال شخصية عرابية لم تكتسب شهرة كبيرة غير أنها كانت فى مجال العلاقات بين الثورتين ذات وزن كبير. هذه الشخصية هي «أحمد العوام»، ويشير من أرخوا لبعض رجالات الثورة أنه كان من بين تلك المجموعة من الرجال التى أخذت على عاتقها شحذ الروح الثورية فى صفوف المصريين، جنبا إلى جنب مع خطيب الثورة الأشهر عبد الله النديم.(٣٠)

ويروى نعوم شقير رجل المخابرات فى حملة استعادة السودان القصة الكاملة لأحمد العوام، ولا بأس أن نسمعها منه .. يقول:

«كان فى الخرطوم رجل من خطباء الثورة العرابية يقال له أحمد العوام، وهو مصرى الجنس نُفي إلى الخرطوم بسبب الثورة العرابية فرأى الثورة المهدية فى وجهه فتشيع لها، وقد أطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ رمضان عام ١٣٠١ (١١ يوليو ١٨٨٤) سماها نصيحة أحمد العوام فإذا هى ثورية محضة، وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهدية وكرهه للحكومة الخديوية..

وقد أثرت أقواله تأثيرا سيئا فى نفوس أهل الخرطوم فسجنه غوردن وكبله بالحديد حتى رأى منه انكسار النفس ووعد أنه لا يعود إلى ما كان عليه فعفا عنه وجعله معاونا فى الحكمدارية براتب ١٥٠٠ قرش فى الشهر، ولكن ما لبث أن عاد إلى سابق عهده من انتقاد أعمال الحكومة وتهييج أهل البلاد ضدها. ولما جاء خبر زحف المهدى على الخرطوم وأعلن غوردن خبر قدوم الجيش الإنجليزى جاهر فى تكذيب غوردن وتصديق المهدي، ولم يقتصر على ذلك بل أغرى إحدى النساء فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكيلك بقصد إحراق الجبخانة كلها فسقطت الجمرة على بعض الأوراق فأحرقتها فشعر بها الديدبان فأطفأها واعترفت المرأة أن أحمد العوام هو الذى أغراها بذلك فأمر غوردن بقتله فقتله فى سراى الشرق». (٣١)

ويعود شقير ليسجل فى موقع آخر أن «من بين ما وجدناه فى بيت المال مطبعة الحجر التى غنموها من الخرطوم، وأهم ما طبع فيها غير منشورات المهدى ورواتبه رسالة حسن سعد العبادى ورسالة العوام ورسالة الشيخ الحسين إبراهيم ولد الزهراء والجزء الثاني من فتوح الشام وبعض كتابات الخليفة». (٣٢)

نخرج من هذه الرواية بحقيقتين:

١- أن أحمد العوام باعتباره العنصر العرابي المتواجد فى الخرطوم قد وجد المناخ المناسب لممارسة ثوريته، وكان من الطبيعي أن يتخذ موقفا، وهو ما فعله فيما رواه لنا نعوم شقير.

ويلاحظ أنه كان لهذا الموقف جانبان؛ أحدهما عملي بما حاوله الرجل من الإعلان عن مناصرة المهدية داخل المدينة المحاصرة مما تمثل فى أنه قد انتهز فرصة احتفال ليلة النصف من شعبان فى دار الحكومة فى العاصمة السودانية حيث كان حاضرا «رئيس علماء السودان وغيره من القضاة والمفتين فجادلهم على يد ومسمع من وكيلها النصراني رجاء أن يسعوا فى إيجاد الصلح بين الطائفتين المتحاربتين» (٣٣) ، وهو قد حرض على تدمير مخازن ذخيرة الحكومة مما كلفه حياته، كما سبقت الإشارة.

وكان الجانب الثاني نظريا تمثل فى الرسالة التى ألفها تحت عنوان «نصيحة العوام للخاص والعام من أهل الإيمان والإسلام». وإذا كان الجانب الأول قد انتهى بنهاية حياة الرجل، فإن الجانب الثاني قد بقي بعده بامتداد الثورة المهدية حتى القضاء عليها عام ١٨٩٨.

٢- حظي ما جاء فى رسالة العوام باهتمام زعماء المهدية، سواء محمد أحمد نفسه أو خليفته عبد الله التعايشي. يسجل ذلك أحد رجال المهدية فيقول أن النصيحة «تليت لدى مسامع مهدى الله وابتهج لصحة مقولها الكائن لوجه الله ودعا له عقب السماع بالزلفى لدى الله وما ذاك إلا لخير به أراده الله، وقررت بمجالس خليفته الأكبر الأفخر فى الهداية السيد المستند عبد الله». (٣٤)

وتتأكد هذه الشهادة مما سبقت الإشارة إليه من رواية شقير أن رسالة العوام كانت ضمن عدد قليل من المطبوعات التى قامت المطبعة الحجرية فى الخرطوم بطباعتها على عهد المهدية.

* * *

على ضوء ما سبق تستحق «نصيحة العوام» الدراسة باعتبارها التجسيد الأوحد للقاء الثورتين، ذلك أنها اللون الوحيد من ألوان الفكر العرابي الذى نملك الدليل على وصوله إلى زعماء المهدية، كما نملك الدليل على قبولهم إياه وترحيبهم به. وسوف نحاول قصر ما تبقى من الدراسة على ما اتصل بهذا اللقاء بين الثورتين..

أول ما نلاحظه فى هذه الرسالة التى رحب بها المهديون أن العوام لم ينكر فيها هويته العرابية، فهو يقول فى مقدمة رسالته: «أُحضرت من ديارى المصرية منفيا إلى هذه البلاد السودانية بما نسب إليّ من أني كنت خطيبا لفئة العرابية حفظ الله رجالها الذين اتقوه ولم يخشوا إلا الله هو جلّ جلاله وعز ثناءه». (٣٥) ويعود فى الفصل الرابع عندما يتحدث عن توفيق فيصفه «بالشاب الجهول وسوء تدبيره وخيبته ونفوره من عساكره ورؤساء جيشه وهم أبناء رعيته الذين هبوا لمساعدة أحمد عرابي باشا لتحرير الوطن من أسره وربقته ورفعه من وهد الذل وإقالته من عثرته». (٣٦)

الملاحظة الثانية: تتصل بموقف الثورتين من السلطة، فهذا الموقف الذى اختلفت الزعامتان حوله فى أول الأمر تأكد تطابقه أخيرا ومن خلال نصيحة العوام.

وقد مر هذا الموقف من الاختلاف الجزئي إلى التطابق الكامل على ثلاث مراحل؛ كانت أولاها عندما اتفقت الثورتان فقط فى موقفيهما من التدخل الأوربي، بينما اختلفتا فى المواقف من كل من الخديوى والسلطان التركي. وكانت المرحلة الثانية عندما عادى العرابيون الخديوى توفيق بشكل سافر بعد الاحتلال البريطاني للإسكندرية وإن بقوا على ولائهم للدولة العثمانية، من الناحية المعلنة على الأقل.

وجاءت المرحلة الأخيرة بعد احتلال الإنجليز لمصر، فلم يعد ثمة ما يخشاه العرابيون من إعلان عدائهم لسلطان استنبول، وهو ما عبرت عنه نصيحة العوام.

يصف الثائر العرابي توفيق فى الفصل الرابع من نصيحته بأنه «من الغفلة والبلادة وفقد العلم والدين والسياسة والتدبير والحيلة» (٣٧). وهو لا يكتفي بذلك بل أنه يرى عدم شرعية حكم أسرة محمد علي لمصر والسودان، وقد خصص فصلا بأكمله لإثبات ذلك، وكان تحت عنوان: «فى شروط الإمامة العظمى وفساد إمامة بني عثمان وبطلان نيابة من ولوهم أمور المسلمين كنيابة محمد علي وذريته على مصر وملحقاتها من الأقطار السودانية». (٣٨)

الأهم من ذلك، وهو الجديد فى الفكر العرابي الثوري، تكفير الترك، وهو موقف طبيعي من أصحاب هذا الفكر بعد الموقف المخزى من السلطان عبد الحميد الثاني إزاء العرابيين بعد أن أصدر منشوره المشهور بإعلان عصيان عرابي فى لحظة من أشد لحظات الثورة حرجا.

ويقدم صاحب «النصيحة» مبرراته فى هذا التكفير، وكانت: «عدم إقامتهم حدود الشريعة المطهرة وتمسكهم بتلك الأضاليل والأباطيل الافرنكية المعروفة الآن بين الناس بالقوانين السياسية من مقتضيات التمدن والحرية حتى نشأ الفسق والمنكر والفحشاء فى جميع ديار الإسلام التى تحت حكمهم وسرى ذلك فى الرعية مسرى الدم فى العرق .. حتى أفسدت على الرعية أمر دينها وجعلت مصالحهم فى أيدى أعدائهم من اليهود والنصارى وأسلمت بسوء تدبيرها وقبح سيرها كثيرا من ديار الإسلام إلى أعدائنا المشركين والكفار كالهند والجزائر وتونس ومصر..». (٣٩)

ويتحول هذا التطابق الفكرى إلى موقف محدد مما يشكل الملاحظة الثالثة، فقد رفض الثائر العرابي بشكل قطعى هذه الحرب التى تشنها قوات الحكومة على رجال الثورة المهدية أو ما أسماه «بفساد هذا الحرب السوداني فسادا نكرا وإن جميع وزرها على الآمرين بإجرائها القائمين بمباشرتها عن رضاء الغير متبعين فيها أحكام الكتاب

والسنة». (٤٠) ويعرب فى نهاية نصيحته عن أمله أن يكون من خير أعوان المهدى وأنصاره «على إعلاء كلمته وتشييد أركان دينه». (٤١)

صحيح أن هذا الأمل لم يتحقق نتيجة لإعدام الرجل غير أنه يؤكد فى نهاية الأمر ذلك التلاحم الذى انتهى إليه فكر الثورتين، وإن كان تطور الأحداث لم يسمح بأن يتم بين رجالهما!.

الهوامش

(١) محمد خليل صبحي: تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان محمد علي باشا- الجزء السادس.

(٢) د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨-١٩٥٣، ص ٥٧

(٣) مثل الدكتور شنيتزر (أمين باشا) حاكم المديرية الاستوائية.

(٤) مثل رودلف سلاطين حاكم مديرية دارفور.

(٥) مثل جسي حاكم بحر الغزال.

(٦) وجدنا نسخة من هذا المنشور المؤرخ فى رمضان عام ١٢٩٩هـ ضمن أوراق حاكم دنقلة آنئذ.

(٧) نص الخطاب: نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ص ص ٤٢٤-٤٢٥

(٨) نص الخطاب: نفس المصدر السابق

(٩) أحمد أمين: زعماء الإصلاح، ص ٢٥٥.

(١٠) د.جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان.

(١١) د.إبراهيم حسن شحاته: مصر والسودان ووجه الثورة فى نصيحة أحمد العوام.

(١٢) الباب الثاني.

(١٣) الباب الثالث.

(١٤) انظر: منشورات المهدية- تحقيق د.محمد إبراهيم أبو سليم (الخرطوم ١٩٨٩).

(١٥) نعوم شقير: المصدر السابق - نص رسالة الخليفة عبد الله للملكة فيكتوريا.

(١٦) د. جلال يحيى: المصدر السابق، ص ٤٠.

(١٧) دار الوثائق القومية: مذكرات ياور حاكم دنقلة- نص المنشور- الوثيقة رقم ٧.

(١٨) نفس المصدر السابق- من وكيل نظارة وحكمدارية السودان إلى مدير دنقلة فى ١١ رمضان ١٢٩٩ هـ.

(١٩) نص المنشور- نفس المصدر السابق.

(٢٠) نص الخطاب- المنشور رقم (١) من مخطوط وصايا المهدى الدينية- مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣٠٣ تاريخ.

(٢١) نص الرسالة فى: Blunt,W.S., Gordon at Khartoum pp.544-545

(٢٢) نص الرسالة فى Ibid., pp.547-548

(٢٣) نص الرسالة فى Ibid., pp.549-548

(٢٤) نقلا عن السيد محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ج١، ص٣٧٢.

(٢٥) المصدر السابق، ج١، ص٣٧٤.

(٢٦) نفس المصدر، ج١، ص٣٧٨.

(٢٧) Blunt, Op. Cit., P.359

(٢٨) رشيد رضا: المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٢٩) نفس المصدر والصفحة.

(٣٠) د.علي الحديدي: عبد الله النديم- خطيب الوطنية، ص ٩٦.

(٣١) نعوم شقير: المصدر السابق، ج٣ ص ٢٦٥.

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) سوف نعتمد هنا على النص الذى أورده د.إبراهيم شحاته - مصدر سابق، ص ص ٢٢٨-٢٥٣.

(٣٤) تعليق السلاوى على نصيحة العوام- إبراهيم شحاته- مصدر سابق، ص ص٢٧٠-٢٧١.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٣٦) نفس المصدر، ص٢٤٩.

(٣٧) نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) الفصل الرابع من ص ٢٤٤ إلى ص ٢٥٢.

(٣٩) المصدر السابق.

(٤٠) نفس المصدر .

(٤١) نفس المصدر.